

المجتمع الإسلامى

ومصادر تنظيمه

للمسند الشيخ محمد أبو زهرة

لابد قبل أن نخوض فى بيان المجتمع الإسلامى العادل الذى ألف بين القوى الإنسانية ، ونظم العلاقات على أسس قوية من العدل والحق والمودة — أن نبين المصادر التى استقى منها النظم التى تحكمه .

وهذه المصادر فى لها دينية لأن الإسلام دين وقانون ؛ أو إن شئت فقل إنه ينظم علاقة العبد بربه على أساس أن أشد قربة إلى الله أن يحسن إلى خلق الله تعالى وألا يسيء إليهم ، فإن الإساءة إلى الخلق إساءة إلى الخالق ، وإيذاء العبد بعد عن الرب ، ولذلك كان التعامل الفاضل مت لازماً مع العبادة السليمة ، وكل عبادات الإسلام تؤدى إلى تأليف اجتماعى يقوم على الفضيلة والخلق المستقيم .

ولذلك كانت مصادر التنظيم للمجتمع الإسلامى مصادر دينية ، وما يكون من اجتهاد للمجتهدين فهو مبنى على هذه المصادر الدينية ، ولذلك نقسم المصادر لهذه الأحكام إلى قسمين : نصوص دينية ، واجتهاد المجتهدين بالبناء على هذه النصوص .

والنصوص الدينية هى القرآن الكريم الذى نزل بحروفه ومعانيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسنة النبوية ، وهى أقوال النبي صلى الله عليه وسلم التى تكون بياناً للأحكام الإسلامية ، وشرحاً للقرآن الكريم ، وكذلك أفعاله التى يكون القيام بها عبادة ، كصلاته وحججه أو غير عبادة كمعاماته لأعدائه ، ولأوليائه ، ومثل ذلك ما كان يقر عليه أصحابه من أقوال وأفعال ، ولذلك قسم العلماء السنة إلى أقوال ، وأفعال ، وتقريرات ، والتقريرات ما ذكرنا من أن أحد أصحابه يقول قولاً ، أو يفعل فعلاً فيقره عليه .

والنصوص الدينية هى المصدر الأول ، واجتهاد المجتهدين يجب أن يكون مبنياً عليها متفقاً مع مقاصدها وغاياتها ، وهو لا يكون إلا إذا لم يكن نص واقف أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذين جليل قاضياً باليمن ، فقال بمر تقضى ؟ قال : بكتاب الله ، قال الرسول : فإن لم يكن ! قال بسنة رسول الله ، قال فإن لم يكن ! قال أجهد رأيي ولا ألو ، أى لا أقصر .

والنصوص قد اشتملت على جملة الأحكام المنظمة للمجتمع ، أما الاجتهاد فهو في تفصيل هذه الأحكام ، وقد اشتملت أحكام النصوص على ما يأتي في تنظيم المجتمع الانساني .

١ - المعاملات المالية :

فقد اشتمل القرآن الكريم والسنة النبوية على بيان أسس التعامل المالي بين أفراد المجتمع كله تنظيميا يقوم على أسس عادلة من شأنها أن تمكن كل امرئ من أن يعمل ، ومن أن تكون له نتائج عمله قلت أو كثرت ؛ وقد نهى القرآن والسنة عن أن يأخذ إنسان مال الآخر بغير رضاه ، وأن يأكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل الرشوة ، وما وجدت الرشوة في مجتمع إلا أفسدت موازينه ، وإذا أفسدت الموازين اضطرب أمره . ولذا قال تعالى : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون .

ومن الأكل بالباطل الربا ، فإن النقد لا يلد النقد ، فكيف يأخذ مائة ويرد مائة وعشرة ، فهل ولدتها ؛ وإذا كانت نتيجة استغلال ، فإنه يجب أن يشترك معه في السكسب والخسارة ، لا أن يكون له الغنم دائما . والآخر عرضة وحده للغنم والغرم معا .

وإن الربا يحل المجتمعات ، ويجعل المستدين ينظر إلى الدائن على أنه آكل له ، فيكون الحقد ، وتكون البغضاء ، وتحل الروح المادية بدل المودة الواصلة الرابطة بين الآحاد ؛ وهو آفة من الآفات الاجتماعية ، تترتب عليه الأزمات الاقتصادية ، حرمة الأديان السماوية كلها .

وعما أحاط به الاسلام المعاملات لتكون في دائرة التفضيلة التي ينمو المال بظلالها — الأمانة : فقد أمر بها لكل إنسان لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، وغنى وفقير ، وعدو وولي . فالكل سواء في أن له الحق في المحافظة على ماله بأمانة الله تعالى .

٢ - تنظيم الأسرة تنظيما اجتماعيا :

وقد نظمت نصوص مجتمع الأسرة من حيث العلاقة بين الزوجين ، وعلاقة الآباء بأولادهم ، وربطت ما بين الأقارب . وفصلت الحقوق والواجبات لكل واحد قبل أقاربه الأقربين وغيرهم ، وتعرضت للواجبات الادبية والحقوق المادية . فنظمت التوارث ، وتصدى لبنيانه بالتفصيل القرآن ، ونظمت العلاقة بين الفقير والغنى في الأسرة ، فأوجبت على الغنى النفقة على الفقير .

وجعلت أساس الحقوق والواجبات في الأسرة المودة والرحمة والتواصل ،
وبينت أنها إذا فقدت الرحمة أو المودة تنقطع أوصالها ، وغير ذلك مما سنفصله
عند الكلام في مجتمع الأسرة .

٣ - تنظيم المجتمع الصغير بعمر الأسرة

تعرضت النصوص لتنظيم المجتمعات الصغيرة ، فنظمت فيها العلاقة بين الجيران
والخلفاء في مصلحة واحدة مشتركة ، وذكرت أن التعاون أساس الروابط الموثقة
بين أعضاء هذه المجتمعات مما سنفصل القول فيه عند الكلام على تنظيم الاسلام
للمجتمعات الصغيرة .

٤ - تنظيم المجتمع في الأمة

نظامت النصص العلاقة بين المستظللين ظل الدولة الاسلامية على أساس من
الفضيلة ومن العدل ومن التعاون ومن المساواة في الحقوق والواجبات بحيث
يكون كل حق في مقابله واجب ، واعتبرت الجميع سواء أمام القانون وأمام
القضاء ، لا فضل لمسلم على غير مسلم ولا لعربي على عجمي . والعقوبات الاسلامية
تشدل الكبير كما تشمل الصغير ولا يعفى منها كبير لكبره . ولا تنزل بصغير لصغره
بل الجميع أمامها سواء .

وقد نظمت التعاون بين الغني والفقير وعملت على تهيئة الفرص لكل عامل
في أرض الدولة ، وسهلت السبل لمزاولة نشاطه في الطاقة التي يستطيعها ، وتيسرها
له موهبه .

كما نظمت النصوص العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبنى الحكم في الدولة
الاسلامية على أساس العدل والمساواة ، وأن يكون اختيار الحاكم على أساس
الشورى ، وحكمه على أساس الشورى ، كما أن على الحاكم أن يلاحظ مصلحة
الجماعة المادية والأدبية ، فلا يرهق أحداً من أمره عسراً ؛ ودعا إلى رفق الوالي
برعيته ، وإن على الحاكم أن يحصى المجتمع من الرذائل والمقاسد . وهكذا نجد تلك
النهج رص قد أقامت المجتمع في الدولة الاسلامية التي تضم المسلم وغير المسلم على
أساس من العدالة والرفق ، والشورى والمصلحة والتعاون . ومنع الفساد والآثام
التي تمتك بالمجتمع .

٥ - المجمع الانساني

نظمت النصوص الاسلامية العلاقة بين بنى الانسان بعضهم مع بعض وعلاقات الدولة الاسلامية على أساس من التسكريم للإنسان ، ليجرد أنه إنسان . لا فرق بين لون ولون ، وجنس وجنس ، وعالم وجاهل ، ومتقدم ومتخلف ، فإن كان فيهم متخلف ، فعلى المتقدم أن يأخذه بيده ، لا أن يجعله مستغلا ومغتالا ولا يضمن عليه بحق الحياة العزيزة الكريمة التي هي حق الإنسان بمقتضى إنسانيته ، وإذا كان العلم له فضل ، فهو يفرض على صاحبه أيضا ، لأنه ما من حق في الاسلام إلا تعلق به واجب . وقررت النصوص الإسلامية وجوب العدالة مع الأعداء من الدول ، ووجوب دفع الاعتداء بحيث لا يتجاوز دفع الأعداء المتقاتلين الذين يحملون السيوف ، فلا يتجاوزهم إلى غيرهم فلا يقتل ذابح في زرع . ولا عامل في عمله ، ولا امرأة في بيتها ، ولا طالب في معهده . فالحرب خرابا ودمارا ، ولكنها دفع للخراب والدمار .

وأمرت النصوص بالفضيلة مع الأعداء والأولياء ، ولو كان الأعداء لا يلتزمون هذه الفضيلة ، فإن الفضيلة كاللفاضل ، وليست معاملة بالمثل ، فلا يقلد الفاضل الشرير ، وإلا زالت الفضائل من هذه الأرض .

ولقد فصلت النصوص ما فصلت من حقوق وواجبات بين الآحاد بعضهم مع بعض ، وبين الأسرة التي تعد اللبنة الأولى في البناء ، ثم في المجتمعات الصغرى والكبرى ، حتى تضمنت التنظيم الاجتماعي للأسرة الإنسانية كلها ، في مثل قوله تعالى . ويا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ولقد جاء من بعد ذلك المجتهدون ففسروا هذه النصوص تفسيراً علمياً ، استخلصوا منها مقاصدها وغاياتها ، والبواعث عليها ، وبنوا على ما استنبطوا أحكاماً لما لم يرد فيه نص ، ولم تتعرض له النصوص من بيان جزئى ، وطبقوا النصوص والقواعد التي استنبطوها بما يلائم المجتمعات في عصرهم .

هذا وإن الدارس للنصوص الدينية من حيث مقاصدها ، يجد أن لها قوانين جامعة في النظم الاجتماعية التي سمتها وهي الفلسفة التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي ، والأهداف التي يقصدها .